إعادة طبع الأعمال الكاملة للكاتب الروماني الأصل بانايت إستراتي (بريلاّ 1884 . بوخاريست 1935):

باريس تعيد «اكتشاف» كاتب منسي!

عبد الله كرمون*

الركض خلف عدالة منفلتة أبدا!!
(أدريان زوغرافي شاهدا).
«لقد منح لنا الرب رئتين كي ننفخ في المزامير»
بانايت إستراتي. ص ,637
«أن تكون شـــاهدا يعني أن تكون شهيدا»
أرثور أداموف.
«لا أحد يشفق على معطوب روح»
بانايت إستراتي. ص 65

«سيكون بمقدورنا، أن نرى، في تلك الصبيحة من ايلول (سبتمبر)، شابا يخرج من باب غالاتز ويركض مثل الريح، بأقدام حافية (...). لما لمحه الرعاة الذين يرعون نعاجهم في سهل شوكي النبات وبائعي الخضروات الذين يحملون خضرهم إلى بلدة بريلا. رسموا إشارة الصليب وبصقوا خلفه:
«إنه مجنون!» ص ,791 ج ,1

ثمة ينتهي المجلد الأول من أعمال بانايت إستراتي، مؤكدا بالتالي خروجا خاصا لرجل مختلف بأرجل حافية وبجنون شديد الالتحاف. كيف يخرج كذلك؟ ولماذا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟

ترتمي أمه على عتبة البيت كل مرة وتسد عليه الطريق بكل كتلة جسدها كي تمنعه من الخروج أي الرحيل بعيدا، وهي تُري له يديها الخشنتين وتخاطبه: لماذا تعذبت من أجلك كل هذه السنوات والآن لا تحيا سوى من أجل قضيتك وليس قط من أجلي؟

«قومي عن سبيلي يا أمي وإلا فسوف أتخطاك؟

تخطيتها مرارا حتى اليوم الذي صار فيه جسدها قبرا لن يتخطاه قط أي مؤمن. اليوم، هو ذا القبر ها هنا مؤلم. وفقدت مع ذلك قضيتي»! (المجلد الثالث).

بانايت إستراتي من أولئك الكتاب الذين لم يكن أهم ما في إرثهم هو فقط ما كتبوه، بل أيضا ما عاشوه يوما عن يوم وما حلموا به من تصاميم لعالم مختلف وعادل. ذلك الركض الذي كان دأبه على الأرض، وتلك الأسئلة التي طرحها كلها وشاء أن يكون من يظمأ إلى إجابات ووضع إصبع على حقائق ملغزة.

لم يأت إستراتي إلى الكتابة طولا بل وصل إليها بشكل طبيعي لأنه سلك بالفعل طريق الأسئلة الكبرى بعناد بالغ وإصرار بلا نظير حتى آخره.

لا آخذ مآخذ الجد أسطورة أن يكون رومان رولان هو من صنع منه كاتبا بأن دعاه إلى الكتابة، لأن إستراتي كان لا بد له أن يكتب على هامش الصراع الذي يخوضه مع الحياة ومع قوى الظلم فيها، سواء دعاه رومان إلى ذلك أم لا! خاصة وأنه اشتغل بالصحافة الرومانية بالموازاة مع نشاطه النقابي آنذاك، قبل أن يتعلم الفرنسية في سويسرا ويصل بعد ذلك إلى باريس لأول مرة سنة 1913.

لم يدُر بعد بانايوتاكيس أو بانايت (اسم من أصل يوناني) دورته الأولى حول الشمس حتى انطفأ، بالنسبة إليه، والده في بلدته بريلا الواقعة على نهر الدانوب قبل مصرعه. كان الرجل إغريقيا وقرصانا محترفا لمهنة البحر وحب الحياة. بينما كانت زويتسا إستراتي التي وضعته امرأة رومانية جميلة وذات مبادئ كفاح، ما جعل بانايت يقول عنها كل مرة بأنها بحق قديسة بامتياز. وإن كان الصعلوك كودين في «كودين» هو الذي لفت نظره إلى أن أمه فعلا كذلك، لأنها عظيمة، لما قدمه إلى أصدقاء له على جنب النهر حينما سألوه عمن يكن مرافقه، أجابهم: «إنه ابن امرأة لا شك أنها قديسة». ص. 581 .

إن الحديث عن حياة الرجل لا يمكن فصله عن ذكر كتاباته ومواقفه، إذ لم تكن كتبه سوى رصد خاص لمفاصل تلك الحياة، التي لم تكد تبدأ حتى صدمته باليتم والفقر وإرغام أم وحيدة أن تنحني على غسيل الغير ووسخ الفئات المترفة كي تضمن وأد كنزها الفريد بانايت هذا الذي اكتوى منذ صغره بنار ما، تلك النار نفسها التي اشتعلت في أعماقه بعد ذلك ودفعت به إلى أن يحترق ويضرم شعلتها حواليه. كازانتزاكي نفسه رأى أن ذلك هو بالفعل دور بانايت في الحياة، وإن أكد بنفسه أن «حياة رجل لا يمكن أن تُحكى أو أن تُكتب. حياة رجل أحب الأرض وجال فيها هي أشد استعصاء على الحكي أكثر من غيرها. أما إذا كان هذا الرجل مهووسا، واختير كل درجات السعادة والبؤس في تجواله، فأن تحاول أن تجسد صورة حية لما كانته بالفعل حياته ليكاد أن يكون مستحيلا. يستحيل ذلك بالنسبة إليه أولا ثم بالنسبة لمن سوف ينصت إليه». ص ,168 ج ,1

لم يقرر له قرار أبدا منذ عقده الأول، إذ ترك ضيق حجرات الدرس سريعا لما فهم أن ما يطلبه لن يجده ثمة بل في الفضاء الرحب. ومضى متسكعا يغادر البيت والبلدة والبلد وبدايناً قلما يطيل فيها مقاما كي يأخذ ثانية في ترحاله. لم يكن ما حدث هو بعينه سعادة أمه وإنما كانت ترغب في أن تجده دوما قربها يعمل ويتزوج ويستقر. ما لم تحاول أن ترغمه عليه، فقط لأن ابنها أدرك حقيقة كيف يريد أن يحيا ونفذه بعزم وإصرار، ما كان مصدر قلق دائم لتلك المرأة التي لا تكاد ترى ابنها يعود وتعتقد كل مرة أنه حان له أن ينثني، حتى يضع مرة أخرى الحبل على الغارب ويبتلعه أفق ما. فهو من «يظهر ويختفي مثل شبح» ص ,205

بعد ذلك بكثير كتب إستراتي أنه هو من قتل أمه، بالماسكة الوجودية لحياته. خاطب غيابها: «أجلْ، أمي الطيبة، لقد متِّ عن جزع، غير أن تضحيتك لم تذهب هباء، سأكون رجلا شريفا حتى النهاية، سأقف جنب الذين بقوا في بلدتنا وجنب الذين غادروها دون أن يكون بمقدورهم قط أن يصلوا»...

لم يكن بانايت يكذب بل مضى بالفعل في كتابة حكاية الظلم والفقر والقمع وانسداد آفاق الإنسانية، سواء من خلال كل التجارب التي يورد عن حكي سالف أو تلك التي كان شاهدها الفعلي في شخص أدريان زوغرافي، أو عبر ملحمة الهايدوك أو من سوف أسميهم الصعاليك إذ يجسدون بالفعل المقابل الحقيقي لتجربة كل صعلكة تمتلك إرساء عمليا لرؤية فكرية عن العالم. إذ يغيرون على الأثرياء كي يقتسموا بعض غنائم مع المعوزين، ويتخذون من الغاب جبهتهم الآمنة ويتسمون بكل قيم النبل والإنسانية. لم يكن هدفه قط أن يغتني حتى لما أتيحت له تلك الفرصة، أو أن يساوم أو ينخدل إذ أخذ عليه ذلك لما أصدر سنة 1929 «في اتجاه الشعلة الأخرى» أو اللهب الآخر، الكتاب الذي فضح فيه خلل النظام السوفييتي آنذاك. وقد كان الكتاب يتضمن في البدء، إضافة إلى نص إستراتي، نصين آخرين لرجلين معروفين هما: فيكتور سيرج وبوريس سونارين، غير أن هذين الأخيرين لم يوقعا الكتاب حينها، بشكل مؤقت، لأسباب أمنية. نشر الأول كتابه فيما بعد تحت عنوان «سوفييت» وأطلق عليه الثاني: «روسيا عارية».

من يقرأ بتمعن كتاب إستراتي سيدرك كم كانت الدوغمائية سمة العصر ذاك وكانت شخصية ستالين مرعبة وفارضة لرعبها وكانت مصالح، من كانت لديهم، أقوى من كل منطق وكل تشبث بانعتاق الشعوب وبتحقيق أهداف الثورة الحقيقية. بانايت كان نبيا منبوذا بطريقته وليس ميله إلى تروتسكي سوى تأكيد للجرح الذي لامسه بطرفي روحه. نعرف سيطرة الستالينية على الحزب الشيوعي الفرنسي إذ ذاك، ما يفسر كل الضجة والكراهية التي أثيرت ضد إستراتي في فرنسا، تلك الحملة التي شنها عليه هنري باربيس وزملاؤه وقطيعته مع رومان رولان وكل الاتهامات التي كيلت له بكونه عدوا للثورة أو عميلا للبوليس الروماني «زيغورانتسا». كل ما تم تفنيده بعد أن قتل الرجل بكل فضائح أصدقائه القدامى ضده. أعيد الاعتبار له بكونه رجلا غيورا على قيم الإنسانية وقيم العدالة. فأرشيف البوليس الذي يخص إستراتي، والذي ظهر على صفحات مجلة مانيسكريبتوم سنة 1976 التي ينشرها متحف الأدب الروماني، بيّن إلى أي حد كان إستراتي عدوا للنظام الروماني وبأنه كان ينعت بالرجل الخطير على أمن الدولة، وقد تم تتبعه في كل حركات وسكنات حياته. وقد وصل إلى لوبيني بوادي جيو سنة 1929، مع صديقه الكاتب الروماني سيوفليك لمساندة حركة وإضراب عمال المناجم الرومان وشجب عاليا المجزرة التي ارتكبت في حقهم آنذاك. كما أن مجهوداته البالغة وصراخه العالي ضد السوفييت في قضية صهر فيكتور سيرج «روساكوف» الذي زج به في معمعة بلا نظير، أي تلك التهم التي تلقق ضد من اعتبروا أعداء الثورة لأنهم حماتها، غير أنه أعزل مثل غيره. كتابه إذن، أو اعتراف مقهور أو منهزم، كان بابا آخر يفشي فيه ضيقه الدائم على تلك العدالة التي تنفلت دوما، ويفاجئه «ظلم ذوي القربى» حسب طرفة، من حيث لا يحتسب. وقد كان من الذين لم يخشوا لومة لائم في نقده لانحراف الحزب عن مبادئ الثورة قبل أن يجيء أرثور كوستلير ولا حتى كاتب «أرخبيل الغولاغ» رغم اختلاف نواياهما عن إستراتي واختلاف مصدر ومنبت نقدهما عن نقده هو.

سبق له أيضا أن انتقد بشدة تفسخ الحضارة الغربية وخيانة فرنسا لرجال أنوارها السابقين ـ وأعجب ماذا سوف يفعل إستراتي لو قدر له أن يعيش في فرنسا اليوم! وإن كنت أدرك أنه لن يصمت أبدا، أبدا! لأن الصمت لديه هو انخراط في الجرائم التي تقترف حوالينا. وأعتقد أن ما كتبه آنذاك ما يزال يصدق عليها إضافة إلى كل تراكمات مساوئها بعيدا عن مبادئ أبخس ديمقراطية. ونجد صرخته في الرسالة التي عنونها بـ«ثقة» ومقاله الذي كتب جراء طرده من مصر: «لأنني أحببت الأرض».

و مهما حدث فإن إستراتي يتشبث بصداقته لرومان رولان باعتباره أباه الروحي أو لنقل معلمه دون أن نتناسق مع بعض طروحات التحليل النفسي التي ترى في كتابة بانايت تمظهرا لاستعارة أبوية، وذلك في طيات أطروحة دكتوراه أولى تتناول إستراتي في فرنسا أنجزتها إليزابيت غيبليسكو تلميذة لاكان أواخر ثمانينيات القرن الماضي.

أو كون بانايت يحمل عبء أخ بكر يموت مبكرا، بعد أن منح له اسم الأب «غياسيم»، هذا الاسم الذي سوف يطلق على بانايت في سنواته الأولى ليتخلص منه سريعا. ليس لأن هذه التعقيدات الوجودية غير ذات بال على نفسية بانايت ولكن لأن ذلك لن يرغمنا على الاعتقاد بأن تكون هي من يقود حياة واعية إلى أبد.

ثمة منذ كتابه الأول تظهر السمات البارزة لرجل سيظل كذلك حتى الأخير. في المقدمة يذكر كذلك رومان رولان، ويؤكد له بأنه ليس كاتبا بالحرفة أو كما يقول ليست مهنة الكاتب مهنتي، ما يعني كل ما يعنيه، سواء إذ قال أنه يتقن أعمالاً كثيرة متنوعة وفي متناول الجميع. هو من مارس مهنة الصباغ والمصور المتجول والنادل وغيرها من الأعمال البسيطة والتي تضمن له اللقمة. ولقد نرى فيما بعد أنه استعمل كذلك نفس العبارة كي يقول بأنه ليس ثوريا بالمهنة أو «ليست مهنة الثوري مهنتي» ما ليس في العمق بسيطا وإنما يريد أن يؤكد في الحالتين بأنه ليس يمتهن ما يشكل بالفعل أس ذاته وأنه يتصرف تبعا لما يضطرم في عمق شخصه وليس لأن الأمر واقع ضمن اختصاص حرفي.

يكتب مرة أخرى بعد أن حدثت القطيعة بينه وبين معلمه الأول لما رأى أن الثورة البلشفية أساء إليها أبناؤها أكثر مما يمكن أن يسيء إليها أعداؤها. يذكره في رسالة موجهة إليه نشرها في مجلة فريديريك لوفيفر les nouvelles litteraires من صدى النوستالجيا إلى المنبع.

كذلك نجد مثلا تلك الصيغة الجميلة في السرد والتي تبلورت بشكل جميل وبنفس خاص في «كودين» وبعد ذلك في «ميخائيل». وإن كنت أجد متعة كبرى في التمعن في جزء هام من «الخال أنغيل».

إن كان أدريان زوغرافي في الكتب التي تندرج في حلقة زوغرافي هو بانايت نفسه، وإن كان شاهدا على تلك العدالة التي تنفلت دوما ولا تطأ أرض الإنسانية فإن بانايت هو شهيدها إن وظفت قولة أرثور أداموف في هذا السياق. ولقد كتب بانايت قبل أن يموت تماما بأن «الاتحاد السوفييتي هو من قتلني»!! وقد لامسنا قليلا دلالة إحالته تلك.

لن ننصف الرجل لو قلنا فقط بأنه حالم كبير أو بأنه رجل اليوتوبيا بلا منازع. بملابسه الرثة البسيطة يخرج من بلدته بريلا يبحث عن ملاقاة أناس آخرين، يرغب في صداقات مثالية وعن أشخاص يفهمونه تماما ويبحثون في الكتب عن معنى آخر لحياة الإنسان على الأرض (عالم كتاب «ميخائيل»). يهرع إلى الشرق والغرب من أجل لقاء مستحيل وعدالة مستحيلة. يكتب منذ كتابه الأول «كيرا كيرالينا» على لسان ستافرو عن ألم أن لا ننظر بعين الشفقة إلا لمن يكون ذا يد أو رجل مبتورتين، غير أن لا أحد يقترب ممن تكون روحه مَن تعاني من ذلك البتر الفظيع، أن تُبتر الروح!!... «ومع ذلك فإن عمود الحياة هو ما ينقصه»!

بانايت نفسه هو من يتألم من جرح الروح ذاك، ولو لم يكن ممزقا من الأعماق لمَا غادر بلدة بريلا مثل كل الأنبياء!

ألم يكتب عنه صديقه كازانتزاكي إلى إليني ساميوس من مدريد سنة 1933 «...بانايت هو مثل مجنون، نعذره في كل ما يفعل»! ولم يكن سوى بصدد قسوة بانايت في ما كتب عن ماري لويز بود بوفي المعروفة بـ «بيليللي» بعد أن افترقت عنه. وإن كانت رسائل كازانتزاكي تثير كثيرا ذلك الوجه الآخر من بانايت، ذلك الذي لا يحسن التصرف في المال إذ ينفق كل ما يقع في يده ويعطي دون حساب وإن كان مصدر ذلك كله آت من حقوقه عن الكتب المطبوعة والمترجمة وعن السيناريوهات وغير ذلك من مقالات. كما أن مزاجه يثير كثيرا من القلق لرفيق رحلته عبر الاتحاد السوفييتي كازانتزاكي ورفيقة هذا، ساميوس، التي كتبت بأن ليس من النادر أن يخرج بانايت تحت مطر غير محتمل يعبر جسر نينيجي باحثا بإلحاح جنوني عن ليمون لشايه المفضل! أو أن تتحدث عن بانايت وكون جيوبه دوما ملآنة بقوارير ما، يخرجها دوما لدى الحاجة، مثلما ذكر عنه كازانتزاكي اليوم الذي ذهبوا فيه لملاقاة مكسيم غوركي، وثلاث زجاجات من خمر أرميني جيد تبدو أعناقها من جيوبه وهما في الطريق إلى الموعد. يومها طلب من كازانتزاكي إن لن ينزعج لو يشربا الخمر مباشرة من الزجاجة لانعدام الأقداح. شربا. «غدا ستعرف من منا الصدي»؟ طرفة بن العبد.

يعود كازانتزاكي كي يلوم بانايت قبيل وفاته، في رسالة، مخاطبا إياه بتحبيب جميل: بانايتاكي. يعاود معه كونه كان قاسيا، كما ذكرت، مع بيليللي: «غير عادل مع بيليللي، كنتَ قاسيا جدا، وإن أردت، جد عادل، ما يعادل لدى النساء الظلم المطلق. النساء كما تعرف ذلك جيدا لهن عالمهن الخاص ـ ماديا وروحانيا وثقافيا ـ . روحهن مفعمة تنضح بالشهوة، فهن بريئات، حتى ولو في خياناتهن الكبرى (خاصة في هذه الحالة) فهن يخضعن لنزوة خفية، بدائية وعميقة. كلهن وفيات لهذه النزوة ـ ولهي ثمة فضيلتهن الكبيرة والمؤلمة. يقدر الرجل أن يكون حرا أحيانا، في لحظة بطولة أو ثمالة، أما المرأة فأبدا، حرية من ذلك النوع ـ تشكل شرف الرجل ـ تكون بالنسبة لها تمردا على قدرها ـ تكون عارا. لهذا أرى سخطك على بيليللي ظلما. ثم: أليس بمكن أن نغفر كل شيء لامرأة منحت لنا لحظة سعادة ؟»..

لم يتخل قط كازانتزاكي عن صديقه بانايت في قرارة نفسه وإن كانت عواصف الحياة كثيرة وتمرد بانايت مشرع القلاع أبدا، في الوقت الذي يصمت فيه الأول، ينتظر ثم وهو يتأمل يفكر بكل حكمة اليونان القدامى ويكتب أوديسته الضخمة. يذكر في مذكرات أسفاره لقاءه الأول مع بانايت في فندق «باساج» بموسكو لما دعيا إلى الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر(مثلما كتب بانايت نفسه عن لقائهما ذاك)، خاطبه بانايت قائلا: «سوف نصير أصدقاء، لقد انتابتني رغبة عارمة في أن نتعارك. أتعلم أني لا يمكن أن أتصور صداقة دون لكمات. يجب أن نتعارك من حين لآخر وأن نهشم الضلوع، أسمعت»؟

كَتب بانايت إستراتي هي بحق كتب التكوين بمعنى الكتابة التي تنفتح على ممرات الحياة التي نجهل ونكتشف شيئا فشيئا كل متاهاتها أو كونها كلها مجرد مجاهل. أجد كم هو رائع كيف يتساءل حول بعض مسلمات الدين وكيف يُري إلى أي حد ليس جرما جللا أن نتسلح بعقل نقدي إن كانت المعرفة يوما أربنا وشأونا الأول.

يثير مثلا كيف أن مرتل إحدى الكنائس، جواشيم الذي اضطلع بمهمة تلقين اللغة اليونانية لفلوريتشيكا التي سوف تقود فريق الهايدوك فيما بعد، تنطلي روحه على كيان مضطرم ومهتز من جهة ضيقة من القوقعة التي انسدت عليه في عالم الحرمان من فضائل الحس والجسد. أبان كما تقول فلوريتشيكا عن أخلاق رجل طيب ونقي وذي نوايا نُبلُ، سواء تواجدا على انفراد أم لا. غير أنه «ذات مرة، دون أن يوقف الدرس، وهو ينظر إلي بعينيه الطيبتين مثل عيني ثور، وضع يديه على بطني ثم على نهدي واعتذر قائلا:

لم أضع قط يدي على أشياء حلوة جدا ولا أرغب في أن أموت دون أن أعرف دفء هذه الأشياء. اسمحي لي بذلك يا فلوريتشيكا. كل الأغبياء يدركون هذا دون أن يقدروه، غير أنني أقدره دون أن أعرفه! لقد رددتني مسرورا بخسارة أقل. فيما بعد سوف تُراودي كثيرا دون أدنى تقدير. ولا تخشي ألا أمضي قدما في هذه السعادة، فإن صدق الكتاب لما قال: آخر الشيء أفضل من أوله، ليس ذلك أقل صدقا منه سوى على انطباقه على الحياة، فكثيرا من البدايات لا تضاهي نهاياتها. صحيح أيضا أنه من أجل ذلك يلزم أن نرى الحياة بعين أخرى من دون السفر الديني». ص 333, كانت فلوريتشيكا تنتظر منه أن يراودها بعد ذلك، غير أنه لم يفعل قط. تعلمتْ منه الكثير وشاءت، قبل أن تغادر، أن، لو أمكن، تترك له أثرا جميلا يثبت رأي الذهن ذكراها. «ماذا؟ ـ يباغتها ـ سلة بيض طرية؟ دجاج؟ أم جرة سمن؟». يبدو أن جواكيم ليس ذلك ما ينقصه، بل يرغب في أن يفشي لتلك المرأة أن «ما أرغب فيه وما قد يدخل علي فرحا أزليا، لا يستطيع الرب أن يمنحه لي ولا أنت. إنه جسد، وجه يليق بصوتي وبغؤادي. ما يمكّنني من أن أحيا وإلا سوف أموت في قوقعة الحمار هذه! لم يرد الرب أن يمنحني هذا. لم يرد أن يمنح البلبل ريش الطاووس. لربما قد أحسن في الأمر، لأنه كما يقال، لو كانت للخنزير قرنان لقلب الأرض».

ثمة أيضا حكاية طريفة في نفس المنحى في ص 72, ص 73, من «كيرا كيرالينا»، تقول أن ثمة أسقف بوخاريست كان لزاما عليه أن يحضر حفلة رسمية في مدينة أخرى. أحضرت له أجمل العربات لنقله، غير أن الخيل لم ترد أن تسرع في عدوها بل تتلكأ على غير عادتها. يعرف الحوذي تماما علة ما في الأمر، إذ أن البهائم لم تتعود كي تنطلق إلا بإيعاز من أفظع الشتائم كأفضل مهماز، أحجم كثيرا عن الأمر حتى نفذ صبره وتوقف لأنه لم يتجرأ أن يشتم الخيل في حضور قداسة الأسقف. قلق الأسقف وتساءل عن سبب ذلك الوقوف القسري. أخبره عن مكنون الأمر فبادره: أصرخ لها: «هيا هيا أيتها الخيول الشجاعة»!

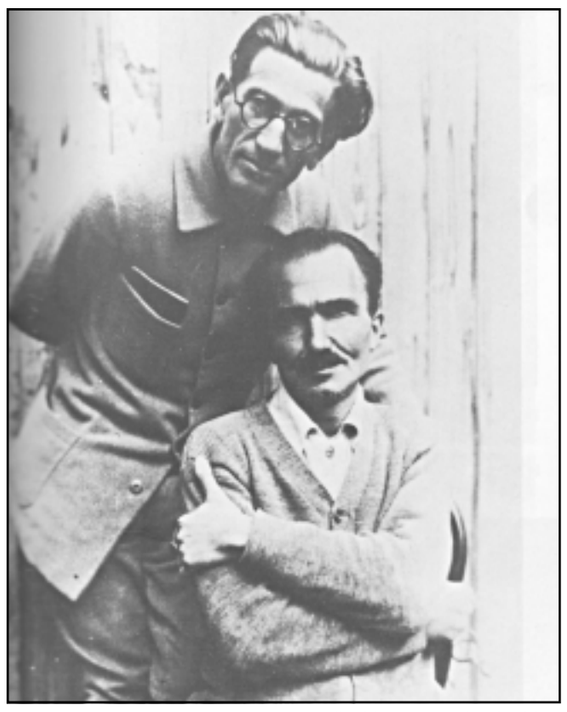

بانايت إستراتي ونيكوس كازانتزاكي

ردها الحوذي فعلا، غير أن الخيول ظلت في مكانها.

تساءل الأسقف بعد ذلك: أليست تمضي الخيل إذا إلا بالشتم البذيء؟

اشتم إذن قال رجل الدين وسوف أشفع لك عن سوئك!

و انطلق الحوذي في الشتم «بصوت قد يخيف حتى الموتى»: «هيا شباشاب العذراء! كل القديسين! الأربعة عشر إنجيلا! الستين سرا كنسيا! الإثني عشر حواريا! شهداء الكنيسة الأربعين!

حاول الأسقف أن ينبه إلى بعض الأخطاء المتعلقة بمعطيات دينية، مثل كون الأناجيل مجرد أربعة، وبأن الحوذي تنقصه كثيرا مبادئ المعرفة. غير أن ذلك إنما تم إخضاع الدين لضرورات مهنية!

ليس من السهل الغوص إلى عمق أعماق أعمال بانايت إستراتي. في نزول أول ويتيم. ذلك أنه كلما ابتعدنا عن السطح صادفنا جمالا وعنفا وتراجيديا إنسانية فريدة. لو نقرأ فقرة يوصي فيها الخال أنغيل ابن أخته أدريان/بانايت على طولها، يقول له: «تذكر أدريان، كلامي، يوم يكتوي صدرك بنفس النار الإلهية التي تكوي صدري. وقبل أن ترتمي، جسدا وروحا، في لجة التفسخ الإنساني، قم بما لم أقم به أنا: أنظر تحت سرير حسنائك، أنظر خلف أذنيها وقدميها المخفيتين داخل أحذية براقة. فإن نسيت كلامي، تذكر المقبرة التي ترى هنا، سرح عينيك في خرابها، في نباتاتها البرية التي نبتت مثل لعنة (...)

أبعد عنك القدر القاسي! ...»،ص,187,

من يقرأ «الخال أنجيل» سيحس بكارثة حياة إنسان طيب وكيف أن رجل دين البلدة أراد أن يقارن ما عصف بحياة أنغيل بما جرى في الميثولوجيا لشخصية أيوب لكون هذا أيضا فقد أبناءه وماله وزوجته وجاء الدود ليسكن بعد ذلك جسده ويمنح لنا أجمل تأملات إستراتي عن عظمة «الرأس» مركز سعادة أو شقاء الإنسان . غير أن أنغيل يرد عليه قائلا أن الأموات لا يبعثون وبأن ثمة «يا عم ستيفان، لا بد انه توجد أكاذيب فظيعة في حكاياتكم الدينية»،ص,199,

«كل ما يمكن أن أخلف لك من إرث ـ يقول أنغيل لأدريان ـ أمنحك هذه النصيحة، اعترض بكل قواك، ما دام في الوقت متسع، لفرح عابر. إن ذلك ما يعرضنا أكثر للمعاناة، للأسف! هذا الفرح يطالبنا وحده بحياتنا كلها، مقابل كل البرميل من الزيت الذي يحرق يمنحنا حبة زيتون وحيدة. ذلك قليل، قليل جدا. الكلاب تعادلنا في المحبة وتفوقنا في الحكمة»،ص,231,

«(...) فيما بعد سوف تعرف فرحا آخر، يأتيك من المرأة ويعادل الفرح الآخر. ذلك اليوم، سوف يلهو دمك وسوف تسيء كثيرا لمن حواليك». ص ,243,

و كأن إستراتي يرغب بالتالي في أن يمنح رؤيته الخاصة عن المرأة أو تأملاته جراء كل مخاوف حميمية تأتيه جهة حنان وقسوة واختلاف الأنثى. أين تستقي إذن قوة اندفاعتها الكونية؟

«لا بد أن المرأة تخبئ خلف فساتينها سرا قد سبق خلق العالم» ص,291, لربما.

أما لو عاودنا عبورا سريعا لدى معابر حياة كودين الثرة، فإننا سنجد رجلا قويا وطويلا في هيئة صعلوك ذي مرأى بشع. فهو معروف في البلدة ويخشاه الجميع. إذ يبدو مجرما («لو كانت حياتي كلها إجراما فإن رغبتي في الخير دوما متأججة» ص,613,) لم يستطع الناس أن يتخطوا قشرة القبح التي غلفت فيها الطبيعة طيبته المغيبة. لذلك ظل في عزلة ويأس من عدالة الناس. صداقة أدريان له نفيسة، بل هي أكثر من ذلك أخوة خاصة، أخوة الدم والصليب ؛ تتأتى من إسالة دم وامتصاصه من قبل من يبرمان ذلك العقد الفريد والخطيرة عواقب المس به.

«أدريان ـ يقول كودين ـ أنت الذي لم تختبر بعد الألم الذي يأتينا من غدر الحب، كن على يقين بأنه أفظع من الجوع الذي يقطع الأحشاء، أفظع من كيّ بحديد محمّى، أفظع من الموت! ...(...) احفظ هذا في ذهنك، أدريان، وتذكر هذا فيما بعد: لن يقدر الناس أن يحبوا، لا يعرف الناس أن يحكموا!..»،ص,596,

لن يكون بمقدورنا أن نثير كل تفاصيل أعمال وحياة بانايت إستراتي، ليس نرغب اليوم سوى في أن نلتفت إلى جمال أن ينشر مرة أخرى تقريره الأدبي المتميز بطعمه الخاص. لقد نسي تماما منذ أن نفدت طبعة الستينيات لدى غاليمار. تنشره اليوم فيبيس ليبيرتو التي باشرت في مشروع جيد نشر روائع عالمية. ويعود الفضل في الإعداد والتقديم لأعمال بانايت إستراتي للدالي. ثلاثة مجلدات صدر آخرها شهر نيسان (أبريل)، الشهر الذي انطفأ فيه بانايت من عام ,1935 في الخامس عشر من نيسان (أبريل) كتب كازانتزاكيس لإلني ساميوس:

«لقد تلقيت الجرائد والنبأ الفظيع لوفاة بانايت! (...) الحياة فظيعة ولا نحس بها بل نضيعها في تفاهات بائسة. وعندما يموت فقط شخص عزيز، ثمة ندرك إلى أي حد نمضي نحو الهاوية..».

شاهدة: «بالقوة يمكن أن نسلب شيئا من احد ما، غير اننا لا يمكن أن نمنحه شيئا بالقوة»! بانايت إستراتي،ص,402,

* شاعر من المغرب يقيم في باريس

اسبوع فعاليات ثقافية فلسطينية مكرسة لحسين البرغوثي

رام الله ـ «القدس العربي»:

تحت رعاية بيت الشعر الفلسطيني واللجنة التحضيرية لأسبوع حسين البرغوثي للثقافة الفلسطينية يقام في رام الله والبيرة وجامعة بيرزيت ما بين 24 ـ 31 أيار (مايو) 2006 برنامج فعاليات الأسبوع الثقافي في سياق إحياء ذكرى المبدع والمفكر الفلسطيني حسين البرغوثي وإحياء لذكرى الراحلين وتخليدا لإرثهم المعرفي، حيث أعلن يوم الأربعاء 24 أيار (مايو) 2006 يوم الافتتاح في المركز الأسقفي العربي في رام الله على الساعة 7 مساء. وتضمن الافتتاح إزاحة الستار عن جدارية حسين البرغوثي (إهداء منتدى الفنانين الصغار لذكرى حسين البرغوثي الرابعة) وكلمة اللجنة التحضيرية لاسبوع حسين البرغوثي للثقافة الفلسطينية وكلمة الرئاسة الفلسطينية ألقاها الأستاذ احمد عبد الرحمن فيما ألقى كلمة اتحاد الكتاب الفلسطينيين الشاعر المتوكل طه ثم كلمة وزير الثقافة الفلسطينية للدكتور عطا الله أبو السبح في حين ألقى كلمة الثقافة العربية الشاعر أدونيس وأعقبها كلمة المؤسسات الوطنية للدكتور سمير شحادة وكلمة المجلس الأعلى للثقافة للأستاذ يحيى يخلف.

ثم كلمة عائلة حسين البرغوثي ألقتها السيدة بترا البرغوثي فيما ألقى كلمة بيت الشعر الفلسطيني (الشاعر محمد حلمي الريشة). وفي الختام عرض قراءة مصورة لحسين البرغوثي من نص «الضوء الأزرق».

وتخلل الافتتاح قراءات شعرية من أشعار حسين البرغوثي قدمها الشعراء: مايا أبو الحيات، مرام أمان الله ورامي يوسف بالإضافة لفقرات فنية قدمها جميل السايح وباسل زايد وزكي جدع.

فيما قدّمت أشعار شعبية لحسين البرغوثي من أداء: الشاعرين نجيب صبري ومثنى الجلماوي وتضمن الافتتاح كلمة للشاعرة داليا طه من الأصوات الجديدة في سياق التفات لدور الراحل وتأثيره على الأصوات الجديدة في فلسطين.

فيما يشمل يوم الخميس 25 أيار (مايو) 2006 على الساعة الثانية عشرة صباحاً ندوة حسين البرغوثي الأولى:حسين مبدعاً في جامعة بيرزيت يشارك فيها الشاعر مراد السوداني الشاعر محمود أبو هشهش والشاعر طارق الكرمي، الفنان جمال الأفغاني، الناقد وليد الشرفا، الأستاذ جهاد صالح ويدير الندوة الشاعر محمد حلمي الريشة. وعلى الساعة السابعة مساء تعرض مسرحية «لا لم يمت» في المركز الأسقفي العربي برام الله . قراءة ممسرحة وهي من تأليف:حسين البرغوثي، وإنتاج مسرح السرايا ومسرح الحكواتي (فرانسوا أبو سالم).

اما يوم السبت 27 أيار (مايو) 2006 فيشمل ندوة حوارية حول الثقافة الفلسطينية وثقافة القطع في جامعة بيرزيت: الساعة 00:2 بعد الظهر في قاعة (317) في معهد الحقوق يشارك فيها الأستاذ جمال ضاهر، د. إسماعيل الناشف ويدير الندوة الدكتور عبد الرحيم الشيخ.

أما ندوة حسين البرغوثي الثانية (حسين محكياً) فتعقد على السابعة مساء السبت في مؤسسة عبد المحسن القطان، على الساعة 00:7 مساءً. يشارك فيها د.عبد الكريم أبو خشان الأستاذ حسن الحلواني، الأستاذ محرم البرغوثي، الأستاذ أمين عنابي، ، الشاعر محمود أبو هشهش، الشاعر محمد عياد. وتدير الندوة الدكتورة سونيا نمر.

ويخصص يوم الإثنين 29 أيار (مايو) 2006 لندوة بعنوان «نحن وهم:مقاربات نقدية في الآخرية والتطبيع» في جامعة بيرزيت، على الساعة 00:12 ظهراً. يشارك فيها د. عادل سمارة، د.المتوكل طه، د. هشام أحمد، الفنان مروان العلان، الأستاذ خالد سليمان. ويدير الندوة الأستاذ الشاعر يوسف المحمود.

أما ندوة «أصوات من فلسطين ـ أجندات بديلة» فتتم في قاعة حسين البرغوثي في بيت الشعر الفلسطيني، على الساعة 00:7 مساء الإثنين . يشارك فيها بشار عايد، عصمت قزمار، يافا استيتي، عبد القادر حامد، داليا طه، رزان شوابكة، فاطمة عطيفات، دلال باجس، رشا أبو شريفة، أسامة حسنات، ليان شوابكة. ويدير الندوة الشاعر مراد السوداني.

أما ندوة الثلاثاء 30 أيار (مايو) 2006 بعنوان «حسين البرغوثي مفكراً» وتعقد في مركز بيت المقدس للأدب، رام الله، على الساعة 00:7 فشارك فيها: د.إسماعيل الناشف: «فرد الكلام، حد مثلية النحو، تأريخ المطلق بإيقاعية مطلق التاريخ»، د.عبد الرحيم الشيخ: «حسين البرغوثي: خطاب الإعجاز ونوستالجيا العاجزين» ويدير الندوة الأستاذ أحمد أبو عوض.

ليختتم الأسبوع يوم الأربعاء 31 أيار (مايو) 2006 بأمسية أشعار مقاتلة وتشمل تسجيلات لأغنيات من أداء أبو عرب، ومداخلات يقدمها الشاعران نجيب صبري ومثنى الجلماوي بالإضافة إلى تسجيل فيديو لقراءات مظفر النواب وسعد الحديدي. وذلك في مركز خليل السكاكيني على الساعة 00:7 مساءً.

سيرة

ولد حسين البرغوثي في قرية كوبر، شمال ـ غرب رام الله، في الخامس من أيار (مايو) عام 1954.وقد أمضى سني طفولته بين مسقط رأسه كوبر حيث أقامت والدته، وبيروت حيث عمل والده.وإثر تخرجه من الثانوية العامة التحق ببرنامج العلوم السياسية واقتصاديات الدولة في جامعة بودابست للعلوم الاقتصادية في هنغاريا. وفي عام 1979 مثّل فلسطين في أكاديمية الكتابة الإبداعية في جامعة أيوا بالولايات المتحدة الأمريكية. وبعد عودته إلى فلسطين، تخرج من جامعة بيرزيت وحصل منها على بكالوريوس الأدب الإنكليزي عام 1983، وقد عمل معيداً لسنة واحدة في جامعة بيرزيت قبل توجهه إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن بين الأعوام 1985 ـ 1992 من جامعة واشنطن في سياتل. وإثر عودته إلى فلسطين، عمل أستاذاً للفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بيرزيت حتى عام 1997، وأستاذاً للنقد الأدبي والمسرح في جامعة القدس حتى عام 2000. وأثناء هذه الفترة كان عضواً مؤسساً لبيت الشعر الفلسطيني، وعضواً في الهيئة الإدارية لاتحاد الكتاب الفلسطينيين، ومديراً لتحرير مجلة «الشعراء» حتى رحيله في الأول من أيار (مايو) عام 2002. وقد صدر لحسين البرغوثي ما يزيد على ستة عشر كتاباً توزعت بين الشعر والرواية والسيرة والنقد والكتابة الفلكلورية، إضافة إلى العشرات من الأبحاث والدراسات الفكرية والنقدية، بعدة لغات، في العديد من الكتب والمجلات والصحف. وفي سياق آخر، وضع البرغوثي سيناريوهات لأربعة أفلام سينمائية، وكتب ما يزيد على سبع مسرحيات لفرق مسرحية محلية وعالمية، إضافة إلى كتابة العديد من الأغاني لفرق موسيقية مختلفة، نحو:صابرين، الرحالة، سنابل، وفرقة إحياء بلدنا.